

وأيضا كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعة وطريق الى الاشاعة لامر من أحدهما ان اجتماع هذه الشرعوط في العدد الكثير معوز ولا بد اذا كثروا من أن يكون فيهم من أدخل بعضها والثاني أن كل واحد منهم يجد سبيلا الى نفي الاذاعة عن نفسه واحالة ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب وقد قال بعض الحكماء كلما كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا وقال بعض الشعراء

وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفي

وقال آخر فلا تنطق بسر كل سر * اذا ما جاوز الاثنين فاشئ

ثم لو سلم من اذاعتهم لم يسلم من ادلالهم واستطالهم فان لن ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان أشد من ذل الرق وخضوع العبد وقد قال بعض الحكماء من أفشى سره كثر عليه المتآمرون فاذا اختار وأرجوا أن يوفق للاختيار واضطر الى استيداع سر دوليته كنى الاضطرار وجب على المستودع له أداء الامانة فيه بالتحفظ والتسامى له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له في خلد ثم يرى ذلك حرمة يعاها ولا يدل ادلال اللثام وحكى أن رجلا أسر الى صديق له حديثا ثم قال أفهمت قال بل جهلت قال أحفظت قال بل نسيت وقبل لرجل كيف كتمانك للسرق قال أبجد اخبر وأحلف للسخبير وقال بعض الشعراء

ولو قدرت على نسيان ما اشتمت * منه الضلوع على الاسرار والخبر

لكنت أول من ينسى سرأثره * اذ كنت من سره يوما على خطر

وحكى أن عبدا لله بن طاهر تناكر الناس في مجلسه حفظ السر فقال ابنه

ومستودعي سرا تهمت سره * فاودعته من مستقر الحشى قبرا

ولكننى أخفيه عنى كائنى * من الدهر يوما ما احطت به خبرا

وما السر في قلبى كيت بحفرة * لانى أرى المدفون ينظر النشرا

(لابى الحسن البصرى الماوردى)

الباب الرابع فى المباحث الادبيه

(فى أن العلوم انما تكثر حيث يكتر العمران وتعمم الحضارة)

والسبب فى ذلك أن تعاليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع انما تكثر فى الامصار وعلى نسبة عمراتها فى الكثرة والقلبة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجوده والكثرة لانه أمر زائد على المعاش فتنى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف فى خاصية الانسان وهى العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته الى

العلم عن نشأ في القرى والامصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعى لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه ولا بد له من الرحلة في طلبه الى الامصار المستبجرة شان الصنائع كلها واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحجار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأسنان العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفانوا المتأخرين ولما تناقص عمرانها وابتعدت سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من أمصار الاسلام ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبجرح حضارتها مستحكة منذ آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جلتها تعليم العلم وأكذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ ما ستين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يحشون عادية سلطانهم على من يخلفونه من ذريتهم لماه عليهم من الرق والولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكاته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولداهم ينظر عليهم أو نصيب منها مع ما فهم غالباً من الجنوح الى الخير والتماس الاجور في المقاصد والافعال فتكثرت الاوقاف لذلك وعظمت الغلات والقوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جراتهم منها وارتحل اليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخوت بحارها والله يخلق ما يشاء

(من مقدمة ابن خلدون)

فضائل الكتابة

ولما يكن عندا كثر العرب كتابة في الجاهلية وكانت اذذاك أمة أمية جعل لها الشعر عرضا فادركت به مراما وغرضاً أقيم عن الكتابة مقامها فابتدعت بحفظ الشعر كلامها وعرفت به انسابها وأيامها فكان أول من أدخل في بلاد العرب الكتابة العربية هو سيدنا اسماعيل فاختص بهذه الفضيلة الاولية وأول من أدخل الكتاب العربي أرض الحجاز هو حرب بن أمية أو سفيان بن أمية فتشبهوا بالحقيقة وساعدتهم على الحجاز يعنى فازوا بالصنائع واتسعت تجارتهم بالبضاعتين وقس على منفعة الخط في البلاد المنظمة غيره من الفنون والصناعات التي أكتسبت جميع البلاد المجد والعظمة مما يفيد المال الصالح للرجل الصالح فانه تصلى الفعال الا بالاموال من الحلال والاموال لا تكون الا بالكسب من وجهه من وجوه الصنائع المعاشية لتعين على المعادية فلا أحسن ممن يكسب المال من حله ويصرفه في محله ويكف به وجهه عن الناس فالفنون التي هي وسائل ذلك ليس عنهما مندوحة وهي في الشرع ممدوحة فلان مانع من دخولها تحت قوله صلى الله

عليه وسلم أو علم ينتفع به أي نفعاً متصلاً دائماً الثواب فالحديث الشريف في قوله أو علم ينتفع به شامل لتعليم المعارف النافعة سواء كانت علوماً أو فنوناً أو صناعات أو آلات فانها لا تخلو عن مداركها علمية وشامل أيضاً لاجتهاد المجتهدين ووضع الواضعين وتدوين المدونين وللتصنيف والتدريس وغير ذلك فالعمدة على العمل الذي ينشأ عنه معلومات نافعة لاهل الملة والوطن وللناس أجمعين ويدل على ذلك ما ورد في رواية أخرى اذا مات ابن آدم ختم على عمله الا عشرة فذكر هذه الثلاثة وزاد غرس النخل وورثة المصنف والرباط في الثغر وحفر البئر و اجراء النهر و بناء البيت للغريب و بناء مسجد لله تعالى وتعليم القرآن فهذا يفيد ان الصدقة الجارية يدخل فيها جميع ما ذكر كما بيناه أولاً وتعليم القرآن وورثة المصنف يدخلان في العلم المنتفع به وان الثلاثة المذكورة ليست حاصرة فلا مانع أن يقاس على التعليم كتابة الكتب وطبعها ممن يأمر بذلك أو يباشره أو يعين عليه أو من يدل عليه حيث كان الدال على الخير كفاعله فكل من سن سنة حسنة داغمة النفع فهي داخلة في العلم النافع يدل على ذلك ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في قوله من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فالتمو من الغارس غرساً حسياً أو معنوياً يخصصه ثمراً حلواً حسياً أو معنوياً فغرسه لا يغرشو كما مادام ملازم الاخلاص فقاصد النفع العمومي يثاب ثواب الخواص فخير الامام السيوطي للمستثنيات من انقطاع العمل فيما هو مذكور في النظم الآتي وهو

اذا مات ابن آدم جاء يجزى * عليه الاجر عد ثلاث عشر
علوم بها ودعاء نجل * وغرس النخل والصدقات تجزى
وبيت للغريب بناء ياوى * اليه أو بناء محل ذكر
ورثة مصنف رباط ثغر * وحفر البئر أو اجراء نهر
وتعليم لقرآن كريم * شهيد في القتال لاجل بر
كذا من سن صالحة ليقضى * نغذها من أحاديث بشعر

مطلب الترغيب في حب الوطن

ارادة التمدن للوطن لا تنشأ الا عن حبه من أهل الفطن كما رغب فيه الشارع في الحديث حب الوطن من الايمان قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمر الله البلاد بحب الاوطان وقال علي كرم الله وجهه سعادة المرء أن يكون رزقه في بلده وقال بعض الحكماء لولا حب الوطن لما عمرت البلاد الغير المنحصة وقال الاصمعي دخلت البادية فنزلت على بعض الاعراب فقلت له أفدني فقال اذا أردت ان تعرف وفاء الرجل وحسن عهده ومكارم أخلاقه وطهارة مولده فانظر الى حنينه لاوطانه وشوقه الى اخوانه قال الشاعر

(أ) القطع المنضبه (جزء ثالث)

وحبب أوطان الرجال إليهم * ما ريب قضاها الشباب هنالك
إذا ذكرت أوطانهم ذكرت لهم * عهد الصبا فيها فحنو لذلك
ولى موطن آليت أنى أعزّه * وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا

(وقال آخر)

بلد صحبت به الشيبة والصبا * وابست نوب العيش وهو جديد
فأذا تمسل فى الضمير رأيتّه * وعليه أغصان الشباب تميد

(وقال آخر)

إذا أنا لأشواق أرض عشيرتى * فليس مكانى فى النهى بمكين
من العقل أن أشواق أول منزل * غنيت بنحفض فى ذراه ولىن
وروض رعاها بالأصائل ناظرى * وغصن ثناء بالغداء يمينى
وانى لأأنسى العهود إذا أنت * بنات الهوى دون الخليلط ودونى
إذا أنا لم أرفع العهود على النوى * فلسست بأمون ولا بأمين

والمراد ببنات الهوى بنات الدهر أى - حوادثه فالوطن محبوب والمنشأ مألوف حتى لغير المتمسك
بل يقال ان البادية الجبلية تتعاقب بحبال جبال أوطانه ويعلق بأذيال باديته ولا تعلق الحاضر بعديته
وحاضرته بحيث لا ينتقل الخلف من باديته الا لانتجاع فى الفلوات ويستسهل خرط القنادر
ويرى عزه فى العصارى التى ألف طبعه سكنى خيامها وتريض عقله عليها واعتاد كما يدل لذلك
ما حكى عن مبسونة بنت محمد أنها لما اتصلت به او بغيره رضى الله عنه ونقاها من البدو الى الشام
كانت تكثر الحنين على ناسها والتذكر بمسقط رأسها فسمعه ذات يوم وهى تشد

ليبت تخفق الارواح فيه * أحب الى من قصر منيف
وأكل كسيرة فى كسر يني * أحب الى من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فنج * أحب الى من نقر الدفوف
ولبس عبائة وتقر عيني * أحب الى من لبس الشفوف
وكلب ينبج الطراق حولى * أحب الى من قط ألوف
وبكر يجمع الاطعان صعب * أحب الى من بغل زفوف
وخرق من بنى عمى نجيف * أحب الى من عالج عنيف

فلما مع معاوية الايات قال ما رزيت انسة بمحمد حتى جعلتني علجا من علاج العجم فالعربي
كثير التعلق بباديته فلا يتمدح الا بها كما قال به قنهم

هذا أبو الصقر فرداني محاسنه * من نسل شيبان بين الضال والسلم
والضال والسلم من أشجار البوادي ذوات الشوك فأشار الشاعر بذلك الى ما يتدح به العرب من
سكنى البادية لان العز عندهم مفنود في الغضر فكان العظيم منهم بين الضال والسلم أشهر من نار
على علم أو أنه من البعد عن الهضم والضم شمس أو قمر بلا غيم بخلاف المتمدن فانه يكثر التنقل
ولكن في الحقيقة تنقله عثرة من عثرات التمدن مرتفعة تعود على الوطن بالمنفعة ولا نظر الى من حصل
له ذلك وهو ان فرغ بذلك عن الاوطان كما قال الشريف الرضى

مالي لا أرغب عن بلدة * يكثر فيها الدهر حسادي

ما الرزق في الكرخ مقبولا * طوق العلا في جيب بغداد

وقال بعض أمراء الحرمين

فوق خيامك عن أرض تها نهبها * وجاءت الذل ان الذل محتاب

وارحل اذا كانت الاوطان منقصة * فالمدل الرطب في أوطانه حطب

فقد يذم الوطن من واحد ويمدح من آخر بحسب حال المتوطن فقد مدح الشريف المرتضى بابل
وتشوق اليها بقوله

ألا يا نسيم الريح من أرض بابل * تحمل الى أهل الخيام سلامي

واني لا هوى أن أكون بأرضهم * على أني منها استندت مقامي

وقد كنت كالعقد المنظم منهم * فيها أنا ذا سلك بغير نظام

أبات أرجى أن يلم خيالهم * وكيف يزور الطيف دون منامي

فلا برق الاخلب بعد بينهم * ولا عارض الا بياض جهام

وخالف ذلك شرف الدين البيهقي حيث قال

أبابل لا واديك بالبر مفعم * لذي ولا ناديك بالرحب أهل

لئن ضقت عني فالبلاد فسيحة * وحسبك عارا أنني عنك راحل

وان كنت بالسحر الحرام مدلة * فعندي من السحر الحلال دلائل

قواف تعبر الاعين النجل حسنها * فكل مكان خيمت فيه بابل

وقال آخر مخاطب أحد الملوك

ان تسكرموني فاني غرس دولتكم * فما بقيت فطواع ومدحان

وان أهنتم فأرض الله واسعة * لا الناس أقم ولا الدنيا خراسان

وقال آخر في حق مصر

لم لأدين بكارهم * وصغارهم تها وكبرا
مال النيل من ماء الحيا * ة ولا جميع الارض مصرا
فهذا قول المغلوب وكلام مهجور الوطن لا المحبوب وأحسن من ذلك قول من تغرب وأصيب
في الغربة بداء حب وطنه وتجرب

وبلدة قدرمتني * بكل داء عنادا

ولورجعت لاهلي * كانت بلادى بلادا

ويكنى في حب الوطن أن كراهة الاجلاء منه مقرونة بكرهه قتل الانسان نفسه في قوله تعالى
ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه (مما يحكى) ان عمر بن الخطاب
رضي الله عنه مر ليلا في المدينة فسمع امرأة تقول

هل من سبيل الى خرقا نبريها * أم هل سبيل الى نصر بن حجاج

أى الى وصله لانه كان حسن الصورة وهو من بنى سليم فدعاه عمر فراه أحسن الناس وجهها وله
شعر حسن فخلق شعره فكان أحسن الناس بلا شعر فقال له أمير المؤمنين لانساكنى في بلدى
فتشع نصر اليه أن لا يخرجك من المدينة فلم يقبل عمر رضى الله عنه فلما ودعه نصر قال له يا أمير
المؤمنين سميتى قتل نفسى فقال عمر كيف ذلك فقال قال الله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا
أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه ففرقن هذا بهذا فقال ما أبعدت يا نصر لكن أقول ما قال
شعيب ان أريد الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الابالله وقد أضعفت لك يا نصر عطاءك ليكون
ذلك عوضا لك ومن أحسن ما قيل في حب الاوطان قول الصقلي

ذكرت صقلية والأسى * بهج للنفس تذكارها

فان كنت أخرجت من جنة * فانى أحدث أخبارها

ولولا ملوحة ماء البكا * حسبت دموى أنهارها

وصقلية جزيرة بإيطاليا المسماة الان سيسيليا كانت في بدا الاسلام زناطويلا ويناسب هذا
قول من قال

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى * ما الحب الا للحبيب الاول

كم منزل فى الارض بألفه الفتى * وينينه أبدا لاول منزل

وما أحسن قول بهضم

على ربيع العامرية وقفة * ليملى على الشوق والدمع كاتب

ولى مذهب حب النيار لاهلها * وللناس فيما يعشقون مذاهب

وقال آخر

وقائلة ماذا وفوفك ههنا * بيرية يعوى من العصر ذبيها

ققلت لها قلى الملامة وانصفي * هوى كل نفس حيث حل حبيها

وحسب المؤمن بحب الوطن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة علامطية -
واستقبل الكعبة وقال والله لأعلم أنك أحب بلد الله الى وأنت أحب أرض الله الى الله تعالى
عز وجل وأنت خير بقعة على وجه الارض وأحبها الى الله تعالى ولولا أن أهالك أخرجتني منك
لما خرجت وبالجملة فحب الاوطان على عظم الحسب وكرم الادب أبهى عنوان وهو فضيلة جليلة
لا يؤدى حق الوفاء بها الا من حاز الشمايل النبيلة ولا تعين عليها الا اللهم العلية والعزائم الملوكية
التي تقلد أعناق الامة حلى المنة والنعمة فتبعهم على التثبث بالوطان والتعلق بأذيال الاخوان
والخلان لاسيما اذا كان الموطن منبت العز والسعادة والفخار والمجادة كديار مصر فهي أعز
الاطوان لبنيها ومستحقمة لبرعهم بالسعي لبوغ أمانها بتحصين الاخلاق والآداب من جهتين
عظمتين (الاولى) انها أم لساكنيها وبر الوالدين واجب عقلا وشرعا على كل انسان (الثانية)
انها ودود بارقيهم مثمرة للخيرات منتجة للبرات فبرها يعوّد على أنائم اثمته وترجع اليهم فائده
ويحسن الصنيع تضاعف الفوائد العوائد أضعافا مضاعفة وكلما تحسنت جهات البر من أهلها
حسنت أيضا الثمرات لطالبيها فاذا كانت لا تحرم من ثمرات مصر الاجاب فبالاحرى أن تقمّع بها
الاقارب ففي الاثر من أعيته المكاسب فعليه بمصر وعليه بالجانب الغربى منها (ويروى أيضا)
سمعت البركة عشرة أجزا عشرة في مصر وجزء في الامصار كلها ولا يزال في مصر بركة ما في الارضين
كلها وقيل في تفسير قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاريها
أن المراد بمشارق الارض ومغاريها أرض مصر وقال عليه الصلاة والسلام مصر خزائن الارض
والخيرة غيضة من غياض الجنة ذكر هذا الحديث صاحب المفخرة بين مصر والشام

(مناهج الالباب)

المنفعة العمومية

هي ولا مداجاة في الحق قوام العمران وسر نظام الاجتماع الانساني وطريق تقدم المدنية لانقوم
بدونها سعادة ولا تتم مع عدمها حضارة ترتقى الامم بتمسك أفرادها بها وتنحط باعراضهم عنها
أرايت لو أهمل الانسان جانبها وصرف عنان عنايته عنها مكتفيا بالاشتغال بمصلحته الذاتية
ومنفعته الشخصية لايهمه غير نفسه ولا يعنيه سوى أمره ان سلم فعلى الدنيا السلام أو مرض
فلا يرى أحد من الانام هل تبقى بين الناس صلوات أو يقوم اتحاد على عمل مفيد ومشروع جيد

هل يمكن أن يكون لامة جنود منظم يرتد عنها طوارق الاعداء ويسذل روحه في مواقف الكفاح صوناً لشرفها وحياطة لحوزتها ويفتح لها البادان ويقوم بكبح جاح أهل العصيان طلباً للتأييد منعها وتقوية شوكتها واعلاء كلمتها لولم تكن قلوبهم مشربة بحب المنفعة العمومية

أم هل يمكن أن يكون لها من أمرائها وزرائها ووجه الس أعيانها سياسة يدبرون أمرها ويرفعون قدرها ويجهدون أفكارهم في تحسين مستقبلها ويكدهون في توسيع نطاقها مع أنهم يتقنون أنهم ربما لن يمتنعوا باجتماع ثمار تدبيرهم لبعدها جلاء عنهم وكان يمكنهم لو كانت المنفعة الشخصية عنايتهم أن يفرغوا لادارتهم الخاصة واستيفاء لذائذهم وادراك أوطارهم ولاسيما أصحاب الثروة الواسعة منهم

أم هل يمكن إذا لم تكن للنفعة العامة حقيقة تفصد أن تعاني العلماء مشاق الاسفار وتقحم الاخطار في البحث على أثر يشاهدونه أو خبر يروونه أو علاج يجربونه أو مطنون بحقه قومه وقد يتوقعون على أموالهم وأنفسهم اتلافاً في غضون أبحاثهم واختباراتهم ويقدمون بعد ذلك عليها طمعا في حقيقة تنكشف للخالفين ومحبوه يظهر للتالين

حب المنفعة العمومية رأس الفضائل وأساس الخلال الخيذة ولوربي الناشئون مناعليه وتعودوه من الصغر لما تعاقبت علينا الصروف القادحة وألت بنا التوائب الموهنة التي منها انتشار السرقة في البلاد والعيث بين العباد ونماعن معامله الحكومة لهم بالسدة وإرهاق الحد ومنها ظهور الرشوة على أيدي كثير من المستخدمين وهو داء عضال إذا لم يستأصل العضو المصاب بمباالقطع فسد جسم الديوان الذي فيه هذا العضو واختل نظامه وتوقف قضاء أي مصلحة فيه على الدينار ولو كان قضاءها من أكدا الواجبات

ومنها التكاثر في الاعمال الخطيرة والتهاون في الامور العظيمة والاتخاذ في مواقع القتال وتفرق قلوب الرجال وذهاب كل في مجال وفقد عروة الارتباط بين أفراد الامة وسوء الاداوة وغير ذلك مما يطول شرحه ولا يندمل جرحه كل ذلك ينشأ الامن حب المنفعة الخاصة والوقوف عند حدها

أين نحن ممن يخوضون غمار البحار يقبسون أعماقها ويكتشفون جزائرها وما بها من الحيوان والنبات ويخترقون مجاهل الارض كواسط أفريقيا ودواخل أرض الصين وأطراف الجهات القطبية شغفا بتوسيع المعارف وتقرير الحقائق أين نحن ممن وقفوا أنفسهم على تبين أسرار الكائنات التي تحقق لنا بها حكمة الحكيم في قوله (خلق لكم ما في الارض جميعا) فاخترعوا الآلات التي يحصل بها الانسان نتيجة ألوف من لا يعاون بها واهتدوا الى استنباط القوانين الكلية التي يتبناها يؤمن من الوقوع في الخطا في الجزئيات

وما كل من قام بذلك كان ماجورا ومنتظرا من الناس منفعة ذاتية حتى يتوهم أن منفعته الثابتة هي التي قادتته الى مواصلة الانعاب وألجأته الى الخروج في هذا الباب لان كثير من أصحاب الآثار العظيمة كانوا يقدون في سبيلها ثموتهم غير طالبين عنهما بدلا وربما كانوا يبدلون جاههم وحياتهم وأنت تعلم أنه لا شيء عند طالب المنفعة الخاصة أرفع منها

هذا يوجينس الكلي الفيلسوف اليوناني كان يصدع بكمته وآرائه ولا يالي بالسخرية بالامراء والعلماء ولا يخرقه اجماع أهل عصره على خلاف ما يرى حتى رمى بالجنون وعومل بالهون

توجه اسكندر ذات يوم الى مدينة قورنثه ليرى ديو جينس هناك فراه جالس في الشمس بجانب برميله الذي كان أعده للبيت فيه في الليل وكان اذا أراد الانتقال الى مكان آخر حمله اليه فلم يعبأ باسكندر فرد نامنه وقال له أما تخافني يا ديو جينس أنا الملك اسكندر فقال له أنت خير أم شرير فقال له اسكندر بل خير فقال اذن لا أخاف فحجب منه وقال له اقترح علي ما تشاء أفضيه لك فقال له تذهب من امامي فقد دحجبت عنى ضوء الشمس وقطعت لذتي بما فصار اسكندر في غاية العجب لما رأى من هذا الفيلسوف

والخليل ابن احمد الفراهيدي مؤلف كتاب العين في اللغة وشيخ سيبويه امام النحويين اجتنب الناس مدة وأخذ يتأمل في أشعار العرب حتى اهتدى الى اختراع علم العروض فدخل عليه ابنه مرة فوجده يقطع بيتا من الشعر فذهب الى خارج البيت وقال أبي قد جن في هذا اليوم فاعتد الناس ذلك والخليل لم يكثر حتى أتم استباطه فخرج اليهم وأفادهم بهذا العلم

ومحيي الدين ابن العربي صاحب المؤلفات الشهيرة كان يذيع تعاليمه بين الناس ومنها ما لا يوافقون عليه فقتلوه والشواهد في هذا المقام كثيرة فلو كان هؤلاء الرجال يبغون المنفعة الخاصة ما تعرضوا لمخالفة أهل عصرهم ومنازعتهم في آرائهم فبأيها المشغوفون بذاتهم العاملون على لذاتهم أي مجدلا لانسان اذا لم تتعد آثاره وأي خريفه اذا اقتصرت مزاياءه على نفسه ولم ينتفع به بنوجنسه وأي فضل له في حبس آثاره في صحن داره

اذا ما قضيت ايلكم بنسا مكم * وأفنيتمو أيامكم بدم

فن ذا الذي يغشاكم في ملة * ومن الذي يلقاكم بسلام

هبوا أنكم أوتيتم حكمة لقان وفصاحة داود ومال قارون وجمال يوسف وقوة عوج وعمروح ولم يشر ككم في هذه النعم أحده أي فائدة الدنيا من وجودكم وأي ذكر لكم بيتي بعد مماتكم خلقوا وما خلقوا المكرمة * فكانهم خلقوا وما خلقوا

ولا يقال ان من يعمل ليطرد في التاريخ باسمه يفقد منفعة شخصية وهو التمتع بسمع الشكر وحسن الذكر لان هذا التمتع لا يدرك منه شيء بعد الممات وهو في الحياة قلبا يجتنى ثمرة كثيرا ما علمنا عن بذل الالوف سرا وأجرى الخيرات مخفيا لا يريد جزاء ولا شكورا ولم يبعد عنا بنا الرجل الامريكى الذى قدم مصر حديثا ووزع الاموال الجمحة على بعض الجهات الخيرية وشرط على أهلها أن لا يلقوه بالاطراء أو يقطعوا راحته بالثناء

ان من جعل غاية مصالحة ذاته نارت فيه الشرور وهاجت عنده الشهوات وانما تستر عن العيون بسنار العجز وحباب الضعف ومتى أسعده الامكان فكف عليها ومال اليها بخلاف من اتجه وجهة المنفعة العامة فان الفضائل تنزج بلحمه ودمه و يحلوه مصالحة الحسنات ومكافحة السيئات ولولا فترته الايام وعانده الزمان وكل ميسر لما خلق له (حفي افندى ناصف)

(مطلب نعيم أبناء الوطن في مكارم الاخلاق بدون تفرقة ولا نظر للاختلاف في الدين)

قد حث صلى الله عليه وسلم على حسن المعاشرة والملاطفة والتعاون في الخير بقوله وكونوا عباد الله اخوانا يعنى يا عباد الله كلكم خلق الله قد أخرجكم من العدم لحكمة انتظام العالم وتكثير منفعه فاكتسبوا ما تصيرون به اخوانا في المودة وقد أمركم بما تقدم ذكره وأنتم عبده فحقكم أن تطيعوه وتتعاظوا وأسباب ما تصيرون به اخوانا لله معاضد على اقامة دينه واظهار شعائره وانتظام ملكه وهذا انما يكون بانسلاف القلوب وواطى الكامة كما يفيد قوله تعالى هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم الآية ثم ان اخوة العبودية التى هى التساوى فى الانسانية عامة فى حقوق أهل المملكة بعضهم على بعض التى هى حقوق العباد وهناك حقوق العبودية الخاصة التى هى الاخوة الاسلامية وهى اكتساب ما يصير به المساوون اخوانا على الاطلاق من أداء حقوق بعضهم على بعض كرد السلام وابتدائه وتعليم الاحكام الشرعية ونحو ذلك من شعب الايمان فهذه هى التى أشار لها صلى الله عليه وسلم بقوله المسلم أخو المسلم يعنى أخوة دينية لانهم ما يجتمعهم دين واحد وهى أعظم من الاخوة الحقيقية وقد قال الله تعالى انما المؤمنون اخوة وفى الصحيحين مثل المؤمنين فى توادهم وتعاظفهم وتراحمهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهر وروى أبوداود المؤمن أخو المؤمن يكف عنه ضيقته ويحوطه من ورائه ورواية الترمذى ان أحدكم مرأة أخيه فان رأى به أذى فليطه عنه أى يبعده عنه ولا مانع أن يعمم فى مكارم الاخلاق فجميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن منها يجب على أعضاء الوطن فى حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من الاخوة الوطنية فضلا عن الاخوة الدينية فيجب أدبا لمن يجتمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكامل نظامه فيما يخص شرف الوطن واعظامه وغناه وثرته لان

الغنى انما يحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية وهي تكون بين أهل الوطن على السوية لا تتناغمهم جميعا بمزية النخوة الوطنية فبقي ارتفع من بين الجميع التظالم والتخاذل وكذب بعضهم على بعض والاحتقار ثبتت لهم المكارم والمآثر ودخلت فيما بينهم السعادة بكسب شعائرها وما أثرها فلذلك بين عليه الصلاة والسلام قوله المسلم أخو المسلم بقوله لا يظلمه أى لا يدخل عليه ضررا في نحو نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله لان ذلك قطيعة محرمة تنافي الاخوة (مناهج الالباب)

(في طباع العرب وأخلاقهم وانقسامهم الى قبائل)

قال المؤلف هر دران العرب في قديم الزمان أعنى في زمان الجهالة الذى يطلقونه على الاعصر الاول من تاريخهم كانوا متشربين خلف بجهنجز يرتهم وكانوا قدام أسسوا ممالك صغيرة في العراق والشام وكانت بعض قبائل منهم تسكن بوادى مصر وكان الحبش من نسلهم وكان جميع العشارى التى فى أفريقياه ارتناهم ولما كانوا منفصلين عن أعلى شمال آسيا برمال كالجبال وآمنين من دهومات الملوك الفاتحين لم يكن شئ يضربهم ولا بالتكبر القائلهم من حيث جلالة أصلهم وشرف عائله آبائهم الاول وشهامتهم التى لا تغلب ومن حيث لغتهم التى لم تزل باقية على نقاشها وحالتها الاصلية وزيادة على ذلك انهم لما كانوا ساكنين فى مركز تجارة الجنوب والمشرق كانت تنعكس اليهم أنوار معارف جميع من جاورهم من الامم ويشتركون معهم فى اجتهاد تجارى قد جعلها حسن وضعهم فى ذلك المركز طبعا لهم فبناء على هذا وقد وجد فيهم من النشأة الاصلية نوع ممارسة عقلية لم يظهر مثلها فى سكان جبال أورال ولا جبال التاي وبذلك حدث فى لغة العرب التى هى لطيفة وبسيطة العبارات المجازية والحكم التهذيبية قبل تفكيرهم فى كتابتها من طويل وكان على جبلهم المسمى بطور سينانزول ألواح الشريعة العبرانيين وقد سكنت هذه الامة التى بعث اليها موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام مع قبائل العرب فى أعقاب الازمان

وكان قدماء العرب يحافظون على أخلاق أجدادهم النبوية ولكنهم قد تغيرت طباعهم بعد ذلك فصاروا سفاكين للدماء مسترسلين فى السامرات معتقدين الاوهام الكاذبة ذوى ثورة وشدة ميل الى المعتقدات الاخر والباطيل وكأنهم قد وهبوا شيبية مؤيدة واقتدارا على فعل أعظم الامور التى غلبت عليهم فكرة سامية فهم وان كانوا ذوى حرية وكرم وعزة نفس الا أنهم سر يعوا الغضب أقوياء الجراءة فترى فى الواحد منهم صفات الفضائل والذائل التى عاينها أمته واضطراره الى أن يستحصل بنفسه على ما يحتاجه من الضرورات المعاشية جعله كثير السعى والجهد وهو صبور لتعوده على المتاعب المتنوعة التى هو مجبور على تحملها وهو يحب الاستقلال حتى كأنه هو الخير الوحيد

(٩) القطع المنتخب (جزء ثالث)

الذي قدم عليه بالتمتع به ولكنه كثير المشاجرة كراهية في مطلق التحكم عليه وحيث كان صعب
المعاملة مع نفسه كان قاسي القلب شديد الحرص على الانتقام في أغلب الأحيان
ولقد أوزعهم جميعاً اثراً كبيراً في المستقر والطباع حية واحدة في شرف النفس ففخارهم بالسيف
واقراء الضيف وقصاحة اللسان بل كان السيف هو الكفيل الوحيد بإتيان حقوقهم وكان اقراء
الضيف معتبراً في نظرهم انه القانون الجامع لقوانين الانسانية وكانت القصادة اعدم معرفتهم
بالكتابة تستعمل في فصل المخاضات التي كانت لانتم بها المحاربات

وأما انتقام العرب الى قبائل فهو أيضاً نتيجة من نتائج معيشتهم البدوية وكانت العوائل الجارية
لديهم تقوم مقام القوانين الشرعية وكانت عائلته تجتمع حول كبير يكون حكمه عليهم دائماً كحكم
الاب على أبنائه لتبوت حق الارشديته وكانوا يصمون الرئيس شيخاً أو سيداً وكانت العائلات
الاصيلة في العرب أشبه شي بمائلات أشرف قدماء الرومان وعائلات أشرف بلاد أوروبا
وكان على جميع المشايخ شيخ أعلى منهم رتبة فكان يعترف قائد جيشهم الغليل العمد ويقب بعض
الاحيان بالامير (أى ما كتم تلك الاحياء أو ملكها) ولكن كان حكمه مقيداً جدابلاً لم يكن ينحصر
من الاقصاص منه بمثل جنابته (١)

وكان موكلاً على جميع مصالح العائلات الا انه كان لا يقدر على تمييز مصلحة نفسه من مصالحها لان
القبيلة عائلته ومنسوبة اليه فهو وان كان الامير الذي يبت الحكم بنفسه في جميع الدعاوى
العظيمة الا انه كان لا بد له من أن يصغى الى آراء المشايخ قبل بت الحكم فكانت جميع القبائل
منتظمة على هذا النسق وربما كانت تجتمع عدة قبائل مع بعضها فتكون قبيلة واحدة وفي هذه
الحال فيكون حق الحكم لشيخ أو قواها شوكة وكثيراً ما كانت القبائل التي ترى وسائل عيشتها
قد تهددت بالحرب المشؤمة ثققل وتختلط بقبيلة أخرى ذات اقتدار على جبايتها ويكثر هذه
المخاطبات والمواخاة يتضح كون كثير من أسماء القبائل لم يبق ذكره الى الان

ومادامت الامة العربية آلفة للعيشة البدوية لم تغير تنظيم قبائلها الذي هو النتيجة المتولدة من
نفس تلك العيشة أدنى تغيير بل لم يرزل ذلك النظام باقياً على ما كان عليه وان كان قد تنوع في الجملة
فاى محل من بلادهم أنشئت فيسه مدائن صار حكم المشايخ فيه مطلق التصرف غير أن القبيلة
التي لم تدخل المدينة لم ترزل كما كانت في الايام الاولى معتبرة كالعنصر الحقيقي لتلك الجمعية التأسيسية
(أى سكان المدن التي تشتاق النفوس الى الوقوف على حقيقة حالها)

(١) راجع كتاب الابحاث الجديدة في تحقيق التاريخ القديم تأليف وانته (بضم الواو وسكون اللام) والمجلد العاشر
من تاريخ انطايا الساطة لرومانية وزوالها تأليف موسيو جيون (بضم الجيم الفارسية وتشديد الباء العربية)

(في ميل العرب الى الوحدة السياسية وفي تجمعهم بسوق عكاظ وفي منازلاتهم بقصائد الشعراء)

أقول كان هناك عدة أسباب تستوجب حصول اتحاد العرب مع بعضهم بالفعل السبب الاول اشتراكهم في الاصل مع عدم ما كان بين الاسماعيين والقبضانيين من منافسة المعاصرة واستلزام اغارة فحاشى الحبش للتأليف بين هاتين العائلتين العظيمتين حتى لم يبق لصيرورتهم تحت لواء واحد الا شئ يسير والسبب الثاني اتحادهم في الاخلاق والعوائد فكانوا جميعا معتمدين على باوهمام العبادة الوثنية الباطلة وبالعوائد الجاهلية العتيقة ما عدا بعض قبائل يهودية أو نصرانية فاما عادة الختان فكانت عامة عندهم وكان عند جميع القبائل تقرب الازواج لموت بعضهم قربانا ومعاملة النساء بمعاملة الرقيق واطاحة تعدد الزوجات ودفن البنات وهن على قيد الحياة بيد آبائهم الفقراء اذ كانوا يخشون من تدفيس أعراضهم ذات يوم وكان عندهم تكبر وحشى لكن مع افراط في حب شرف النفس فكانت هذه التصورات وتلك العوائد التي من شأنها الحداث البسالة والبطولية الحماسية توزعهم الشجاعة والكرم وتحملهم على المحاماة عن المظلوم نيابة عن الشرع وعلى تقديم الزواجا بما يعدون به على الحياة وكان عند هؤلاء العرب ايضا حب الانتقام والافراط فيه وقانون المقاصة النافذ على الجميع والاحتياج الى المساواة وجواز النهب والسلب من بعد الانتصار واقامة الشطارة والقوة مقام الحق وكان عندهم ايضا اقراء الضميمة مع عيب حرمان أنفسهم وشدة التشوق الى الصيت والسمعة بين القبائل وهو السبب الذي يحمل صاحبه على فعل أجل الافعال وعلى ارتكاب أعظم الجنايات والاثام فهذه الخصال هي صورة ما كان يشاهد في بلاد العرب وأما هوان نفوسهم فكانت أكبر تلك الخصال غلبة وظهورا فيمكن أن نستنبط من ذلك انه متى اتجهت عقولهم الهائجة المخاطرة الى شئ واحد ونبت اليه وثبة واحدة لا يصد عنها شئ وكان وصولها الى هذه الغاية مستلزما ايضا لسبق شرطين الاول الاتحاد في اللغة والثاني وحدة الدين فاما الاول فكان بعضه موجودا فيهم وبيان ذلك أن العرب لما كانوا منقادين الى غرائزهم دون غيرها كان ذلك مهينا لاختلاط لغات قبائلهم العديدة ببعضها وصيرورتها لغة واحدة ولما كانوا ذوي غيرة على افعالهم العجيبة وما أثرهم الى ذراريتهم كانوا يحبون الاشعار حيث رأوها الوسيلة في توصيلها اليهم يريدون بذلك أن ينشر فخارهم ومجدهم في جميع بحيثجزيرة العرب الا أن كلام مؤلفي نجد والحجاز لم يكن يفهمه مؤلفوا الكلام بارض اليمن بل لم يتفق قبائل البلاد الواحدة على لغة واحدة وكان شعراء العرب هم الذين وكل اليهم اختراع لغة أعين من تلك اللغات وبرواية أشعارهم في كل جهة تعينت الالفاظ المعتمدة للدلالة القطعية

على الافكار والنصيرات ومتى كانت عدة عشر نستعمل عبارتين مختلفتين للدلالة على فكرة واحدة كانوا يختارون منهما ما اختاره الشاعر في ذلك المقام وهذه المثابة تكونت اللغة العربية بالتدريج وقد فهموا مع ذلك فوائد التمدن فصاروا يقابلون الابتهكات العقلية بالاعتبار الواجب الذي لم يكونوا يسمعون به الى ذلك الزمن الا نصيرات القوة البدنية فانشروا جمعيات عامة كانوا يستفيدون منها التعارف والتحاب ولم تكن حقيقة تلك الجمعيات التي كانت تعتقد في عكاظ وهي مدينة صغيرة بين الطائف ونخلة على بعد ثلاث مراحل من مكة وفي المنحة وذى الحجاز خلف جبل عرفات (١) الامجالس حافلة للفاخرة والمفاضلة بالشعر لا غير وبالجملة فلم يكن فيها شئ من التحكم على النفوس فضلا عما كان فيها من الساذجية فانها كانت تعقد كالالعاب والمواسم الاولية في قديم الزمان يلاذ اليونان فكان يقوم شجاع ويمشى مشى المنكب أمام جمعية صامته جامعة لافكاره وليس عليه شئ من العلامات الدالة على جلالة قدره ولا شئ من الزينة الدالة على علو رتبته ومع ذلك كانت جميع الابصار تشخص اليه فيقف على عال من الارض وينشد قصيدة كاملة على الحاضرين بصوت رخيم رنان من غير استعانة بشئ غير الالهام اوروية حافظته الواسعة الاقتراح فكان تارة ينشد أعماله العظيمة ووقائعه الجسيمة وشرف قبيلته وطورا يصف لذائد الانتقام وتارة لطائف اكرام الضعيف وطورا لشجاعة وفي كل لا يغفل عن مدح شرف النفس والعرض وكان في بعض الاحيان يقتصر على وصف عجائب الاكوان المشاهدة والعزلة عن الناس في الصحراء والواحات المشتهمة جدا وخفة عدو الطباء وكان السامعون لا ينظرون الا الى فمه ويستحسنون جميع الاخلاق والسجايا التي يودأن يوزعونها اياها وكان يرسم على وجوههم المنسمة بالانتباه ما يقع بنفوسهم من الاستحسان للبطل الصبور في منازلة الخصم ومن الاحتقار للمجبان في المنازلة ولم يكونوا يداونون قط ما قام عندهم من استحسان أو استقباح فكان الشاعر اذا ذك انما شهدوا له يقترح ابلغ مما أبداه ويعود الى انشاد الشعر بحماس جديد ولما كان شعراء العرب متصفين باعتماد وسند الايمان لهم فيه أحد كانوا هم المدونين لتاريخ بلادهم قبل بعثة النبي محمد عليه الصلاة والسلام ولما كانوا هم أصحاب الرأي السديد كانوا يعاونون ويخفضون كما يستصوبون

(١) راجع صحيفة ٩ وصحيفة ١٥ من كتاب بركن المسمى بتاريخ انوار العرب القديم وصحيفة ٤٥ من كتاب اسماني المسمى بالبحث عن اصول العرب وكلمة عكاظ في قاموس اللغة العربية تأليف الفيروز آبادي وصحيفة ٧٦ من ترجمته رموس لذي تاريخ شهاب الدين أحمد النويري في أخبار العرب وصحيفة ٢٥٥ من المجلد الرابع من الاغانى وصحيفة ٢٩٦ من المجلد الاول من كتاب مرصد الاطلاع الذي ذكره كوسين دو برسوال في مصنفه وكذلك راجع تاريخ العرب قبل ظهور النبي محمد عليه الصلاة والسلام الذي ألفه روهل دوليلينسترن وكان طبعه في مدينة لوندبرسنه ١٨٣٦ ميلاده

شأن القبائل المختلفة ومن ثم كانوا مخوفين ومحتريين عند الجميع فاما ما اقترحوه من قصائد الاشعار فكان ما يقبل منه بعكاظ يكتب بالذهب على نفيس القماش ثم يعلق على الكعبة ليحفظ حتى تطلع عليه الذرية المستقبلية

ولله درهم في احداث هذه الكيفية لحفظ ما استحسنته من القصائد فقد اوصلت اليها سبع قصائد وهي المعلقات (١) المشهورة واسماء ناظمها مشهورة أيضا الى الآن الا ان اول امرؤ القيس (وكانت وفاته سنة ٥٤٠ بعد الميلاد) والثاني طرفة (وكانت وفاته سنة ٥٦٤) والثالث عمرو (وكانت وفاته سنة ٦٢٢) اثنى عام الهجرة والرابع الحارث بن حلزة بكسر الحاء واللام المشددة (وكانت وفاته سنة ٥٤٠) والخامس لبيد (وكانت وفاته سنة ٦٦٢) اثنى عام ثلاثة وأربعين من الهجرة والسادس زهير (وكانت وفاته سنة ٦٢٧) اثنى عام الهجرة بنحو خمس سنين والسابع عنتر بن شداد (وكانت وفاته سنة ٦١٥) وعنتره دون غيره هو الذي فاق في اتقان جميع أنواع الشعر الجاهلي حتى كان لا يفوقه فيه أحد فكانت العرب تجتمع كل ليلة تحت خيامهم ويلذذون بسماع تلك القصائد العجيبة التي جعلت بين محاسن الترم المطرب المشجى وحلاوة التوقيع العذبة الناشئة عن شوق بلا تكاف ويرون فيها جميع السجيا العربية وجميع المشتريات التي تثير فيهم الحماسة مؤلفة بلغة كأنهم لم تخلق الا للافصاح عنها وان هؤلاء الشعراء السبعة وبعض شعراء آخر كانوا معتبرين جدا وكذلك المرقشان (٢) بضم الميم وفتح الراء وتشديد القاف المكسورة (وكان أحدهما سنة ٤٩٥) والاخر سنة ٥٣٠ بعد الميلاد والنايعة الذي ياني (وكان سنة ٦١٥) ودريد بن الصمة (وكان سنة ٦١٠) وحاتم (وكان سنة ٦٢٠) والاعشى (وكانت وفاته سنة ٦٢٩) وغيرهم قد لمحووا جميعا في اشعارهم الى حوادث عظيمة حصلت في نجد بين القبائل المستقلة بنفسها التي كانت تسكن في وسط بلاد العرب وأولها واقعة البيضاء التي منعت غارات ملوك اليمن سنة ٣٥٤ بعد الميلاد ثم فتوحات ملوك كندة (بكسر الكاف) الاوائل وفتوحات الحارث الذي صار ملكا على الحيرة سنة ٥١٨ ثم نصرات سلان (سنة ٤٨١) ونصرات خراز (سنة ٤٦٢) التي حازها ييعة وابنه كليب على العرب الحيرية ثم حرب البسوس بين آل بكر والتغلبين الذي استطال من سنة ٤٩٤ الى ٥٣٤ ونصرات زهير أمير بني غطفان

(١) وكان العرب يسمون أيضا تلك المعلقات بالذهبات أي القصائد المذهبة راجع صحيفة ١٦٤ من تأليف بركوك المسمى باصول تاريخ العرب وصحيفة ٢٩٧ من المجلد الاول من تاريخ كوسين دو رسوال
(٢) راجع من صحيفة ٥٠٦ الى صحيفة ٥٢١ من المصنف المسمى بجزء آسيا المطبوع في شهر نوفمبر سنة ١٨٣٨ ما ذكره كترمير في تلك الصحف في خصوص المرقش وانظر ايضا تاريخ كوسين دو رسوال فقه شرح وفسر في المجلد الثاني من تاريخه أكثر ما يعزى الى المرقشين من الكلام

على هوازن (نحو سنة ٥٦٧) والحرب الطويلة المعروفة بحرب داحس بين بنى عبس وذيبيان (بضم الذال) وكانا أعظم قبائل غطفان فاستظالا من سنة ٥٦٨ الى سنة ٦٠٨ بعد الميلاد مع وصنهم الحرب التي حصلت بين بنى تميم وبنى عامر نحو سنة ٥٧٩ وقتال بنى عبس وبنى ذبيان مع هوازن وبعض قبائل آخر من نسل خصفه وتشتهر بمعركة الرقم (بفتح الراء وسكون القاف) والنبعة واللواوسلا وهوراء من سنة ٦٠٩ الى سنة ٦١٥ بعد الميلاد ثم حرب بنى تميم وبنى بكر ولم تنته الا سنة ٦٣٠ بعد الميلاد وهو وقت دخول القبيلتين المذكورتين في دين الاسلام وقد وجدنا فيما أنشدته الشعراء الذين اشتهروا وبهروا العقول في ذلك العصر وصفا صحح المعيشة عرب البادية الذين لم يغير الدهر أخلاقهم الشهيمية ألبتة فكأن من عادتهم بعد انقضاء المنقاتلات السافكة للدماء أن يعدوا وامنات للفضائل والتظاهر بالكرم بسمونها المنافرة والمنازلة التي حصلت سنة ٦٢٠ بعد الميلاد في بنى عامر كقيمة في نفة مما صورته تلك المناقرة وذلك ان المشيخة على كل قبيلة كانت لا تقلد به الامن كان أحق من غيره فاتفق ان علقمة وعامر بن الطفيل وكانا شاعرين شجاعين قد زعموا استحقاق المشيخة وحكم في منازعتهم ما شيخا مجيلا على عشيرة غير عشيرتهم ما خلفهما ذلك الحكم ان يمثلوا بلاء اعتراض الحكم الذي يحكم به في ذات وأجل بته الى سنة فبقي المتنافسان ينتظران مضي ذلك الوقت المحدود ويجهدان في الاشهار باعمال الشجاعة والفضائل وما كان ذلك العصر الا عصر الشوالية (المشهور عند الفرنج) فلما حكم ذلك المحكم بان كلامهما جدي بالرياسة على العشيرة اشتركت في الحكم وبقيا متحدين مع بعض أشد الانحداد وكانت أنواع هذه الحماكمات تعمل عجما حافلة ويبقى لها تأثيرا كبيرا في الازدهان فلا تعجب اذن بعد ايراد مثل هذه الامثلة في المناقرة من الخصال العجيبة جدا حتى تنافس فيها كل من حاتم وزيد الخليل وكانا من بنى طي عحيث ضربت الامثال بكرمه ما في ابتداء القرن السابع من الميلاد في جميع بحيش جزيرة العرب

(غاية الارب في تاريخ العرب)

فيما يجب للملوك على الرعية وما للرعية على الملوك

قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم وفي أولى الامر أقوال أحدها انهم الامراء قاله ابن عباس والسدي وأبو هريرة والثاني انها نزلت في أمراء النبي صلى الله عليه وسلم مثل خالد وعمار قاله مجاهد والثالث انهم العلماء حكاه الزجاج وأظنه اختاره والاول هو الاظهر فالرعية عليهم بذل اطاعة للملكهم والاستقامة لامره والانقياد لحكمه واجتناب نهيه وليس للملك أن يطالب بحبة القلوب واخلاص الضمائر فذلك امر رباني لا تقدر

عليه البشر ولا تملكه (وقد) تحيل بعض الاكاسرة ورام أن يضبط القلوب فقال في خطبة له أيها الناس ان لنا عليكم حق شمول النعمة وعموم السكون والدعة فمن طلب غاية لم ينالها منا أو رام فوق ما يستحقه ولم يقسم له قاسم الخطوط شيئا مما يرضيه فإنه يستحظ ويقتنا ويتمنى زوال دولتنا وما يديره لعل الشقاء له في ذلك أكثر فاذا دخل علينا اطعنا عليه وظهر لنا ذلك في أسارى وجهه وقلبات لسانه فنقابله تارة بالاعراض عنه وتارة بالاحسان اليه لتخبر حالتيه في ذلك فاذا تحققنا ذلك أهملناه فان استقام استتماله وان زادت حاله فسادا عاقبناه وعقوبة بتنا ضرب العنق وفي هذا الكلام من دقائق السياسة وضوابط الاستيلاء مما يجلب موقعه ويعظم نفعه وهكذا النبي صلى الله عليه وسلم كان يبايع أصحابه على السمع والطاعة في المنشط والمكروه وفي صحيح مسلم عن أم الحصين أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع فقال ولواستمع عليكم عبد يتقودكم بكتاب الله فاستمعوا له وأطيعوا وفي طريق آخر عبد احب شيئا مجدعا فعلى هذا الايطاع في معصية الله (وفي الصحاح) عن ابن عمر رضي الله عنهما انه قال في خطبته على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة (وفي البخاري) عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى من أمره شيئا يكرهه فليبدله فإن الله ليس أحد يفارق الجماعة شبرا الا مات ميتة جاهلية فعلى هذا من أظهر العناد وجاهر بالشقاق فقد نلف واستحق العقوبة

(فيما يجب للرعية على الملك)

قال عليه السلام كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فيجب على الملك أن يلتزم لرعيته بأربع خلال (احداها) الشفقة وهي تتألف من محبته اهتم وخوفه عليهم وحذره كالوالدين (الثانية) العناية بهم وهي بامعان الفكر في أمرهم وانجاز ما نسخ لانكر في مصلحتهم (الثالثة) التأليف من الملك أو من نائبه ممن يقوم مقامه في ذلك لانه يسوس جماعات قلوبهم متفرقة وأغراضهم متباينة فنفعه التأليف جمعهم وتأسيس نافرهم وتقريب متباينهم (الرابعة) الرفق فانه أصل في السياسة لان القسوة اذا أفرطت نفرت وكذلك الرقة اذا أفرطت أطمعت فخيرا الامور أوسطها ومما يجب لهم عليه حمايتهم ورعايتهم وحفظ ثغورهم من الاعداء وطرقهم من القطاع واللصوص ومدنهم ومساكنهم من السراق وأهل الفساد فهذه وظيفة الملوك وأيضا انصاف المظالم من الظالم فان النفوس الامارة بالسوء شبيهة لنفوس السباع وأخلاقها وطباع الحيات وانما تقارب فانها المتذبذبة القهر وتستضرى عليه وتقرن ومنشأ هذه الاخلاق من افراط القوة الغضبية من وجوه إمامان أو بطران أو اخلاف واعدو واعد فاذا ابلى الملك بأصناف هذه الطائفة

فيداويها بالزجر والنقي من الارض أو دفعهم الى الحروب والمصاعب (كما قالت) مراراً بالفرس
لازدشير انافداً جعنا عليك ووليناك علينا لتستبدل ما كافيه من الاسآت باحسانك فقال لهم
احفظوا الى نعمة الملك ا حفظ لكم سنة العدل وأوف لكم بالقول والفعل ففكر وافاذا هو قد جمع
لهم في هاتين الكامتين جميع الكلام السياسي والحقوق التي لهم وعليهم (وينبغي للملك) أن يتدق
أحوال رعيته فيعطى التقير ويكل الناقص ويصل المنقطع ويورث ذوى الميراث ويقبل ذوى
العثرات لانه كالعضو الرئيس الذي يوصل الى كل عضو بعد عنه أو قرب من الغذاء مقدار حاجته
حسب اللائق به من ذلك (وفي صحيح مسلم) عن عبد الرحمن بن شماسه قال أتيت عائشة رضي الله
عنها أسألهما عن شيء فقالت من أنت فقالت رجل من أهل مصر فقالت كيف كان صاحبكم لكم
في غزاتكم هذه فقلت ما نتمناه منه شيئاً كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير والعبء
فيعطيه العبد ويحتاج الى النفقة فيعطيه النفقة فقالت أما انه لا يعنى الذي فعل في محمد بن أبي
بكر أخى أن أخبرك ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي هذا اللهم من ولى
من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولى من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به (ويجب)
ان يتظر في حال رعيته فيحسن الى المحسن ويردع المسيء المحرم ويكف يدجذبه عن ظلم الرعية
والتعدي عليهم ولهذا كانت المملوك تتخذ منازلها بعزل عن منازل الاجناد ومنازل الاجناد بعزل
عن منازل الرعية لتلايتأذى بعضهم ببعض ويقع بينهم مخاصمات وشرو بين النساء والصبيان
والغلمان وكذلك يكون لهم جامع مفرد وجماعات مفردة ولا تشارك الجند الرعية في حرفهم
ومتاجرهم ومزارعهم فانه اذا كان الجند زراعاً أو تجاراً ضعفت أحوال الرعية من عدم التسبب
وضعفت بيوت أموال المسلمين من عدم تحصيل الزكاة وما واجب ويفسد حال الرعية المتسبين
والزراع (وفي ذلك) مما ذكر في فتوح مصر وافريقية قال حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن وهب
عن جبوة بن شريح عن بكر بن عمرو عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه
أمر مناديه أن يخرج الى أمراء الاجنادية يقدمون الى الرعية بان عطاءهم قائم وأرزاق عيالهم
سائل فلا يزرعون ولا يزرعون (قال) ابن وهب وأخبرني شريك بن عبد الرحمن انه بلغه أن شريك
ابن أبي عمى العطيفي أتى الى عمرو بن العاص فقال انكم لاتعطوننا ما يحسبنا أفتأذن لي بالزرع فقال
له عمرو ما أقدر على ذلك فزرع شريك من غير أن عمرو فلما بلغ ذلك عمراً كتب الى عمر بن الخطاب
يخبره ان شريك بن عمى العطيفي زرع بارض مصر فكتب اليه عمر بن الخطاب أن ابعث اليه
فلما انتهى كتاب عمر الى عمرو بن العاص اقرأه شريكاً فقال شريك لعمر وقتلتني يا عمرو فقال له عمرو
أنا قتلتك أنت صنعت هذا بنفسك فقال له اذا كان هذا من رأيك فاذن لي بالخروج اليه من غير كتاب

ولك عهد الله أن أجعل يدي في يده فاذن له بالخروج فلما وقف على عمر قال تؤمنني يا أمير المؤمنين قال ومن أي الاجناد أنت قال من جند مصر قال فلعلك شريك بن يحيى قال نعم يا أمير المؤمنين قال لا جعلتك نكالا لمن خافك قال أو تقبل مني ما قبل الله من العباد قال أو تفعل قال نعم فكتب الى عمروان شريكا جاء في تابة فقبلت منه (ولما) استولى جوهر المعزى على مصر بنى له سيده المعزى بالقاهرة والقصور ليكون هو وأصحابه وأجناده يعزل عن العامة وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وبني الجامع الأزهر في سنة ستين وثلاثمائة ووصل المعزى الى الديار المصرية ودخل قصره في سنة اثنين وستين وثلاثمائة وكان من أمرهم ما كان وعلى هذه العادة ملوك بني عبد المؤمن بالغرب فعلموا بمرآكش وتلمسان وغيرها (وينبغي) ان ينظر في حال الحجاج والزوار فيصلح أحوالهم ويوضح سببهم ويختار دليلهم ويؤمن عليهم من يرفق بضعيةهم ويوسع عليهم في الزاد والماء والمحل وكثيرا ما كانت الخلفاء تباشر ذلك بنفسها أو تقدم من يقوم مقامها وتتكلف النفقات الكثيرة لذلك وينظر في حال أهل الذمة والمعاهدين فيمنع من ظلمهم ويشفق عليهم فانهم كالعبيد والمستضعف جانبهم وكذلك يمنع من تعدى طوره وخرج عما يجب عليه منهم ويحسم المادة في ذلك

في سيرة الملك مع أهل الشريعة العلماء والفقهاء والفضلاء

يتعين على الملك أن يبذل اجتهاده في اظهار رونق الشريعة واحترام أهلها وكرامتهم والالتفات على تعليمها والحفاظ على عاينها وبأمر أولاد العلماء بالاشتغال بالعلم وكذلك يفعل مع جميع الطوائف سوى أهل الشرور والمهن الخسيسة فيتركهم وشأنهم وما اتصل وتنض همتهم اليه ولم يكن في الدنيا أعظم دولة ولا أشنع مملكة ولا أدوم أياما وذكرا من دولة الفرس ودولة اليونان وسبب ذلك تعظيمهم للعلوم والحكم وتمكين من يشغل بذلك ورعاية جانبه حتى كان أكثر ملوكهم علماء وحكماء وقديما كان الانبياء ملوكا وكانوا يشتغلون بالعلم واستنباط الحكمة حتى بلغوا في ذلك غاية المنتهى وتعلمه نساءهم وصبيانهم (مثل) أزميسدخت ورش الفارسيين وايلاد بطره بنت بطليموس صاحب الحكمة والتعانيف ومثل ورديد بن سملوق بن سرياق الانطاكي اليوناني الذي ملك الديار المصرية ووضع الحكم بعد أبويه وقبل الطوفان واشتغلوا في زمانهم بالعلوم والاستنباطات وعلموا بمجادنة الطوفان وكان سبب ذلك ان سوريد الملك رأى رؤيا هائلة وأفرغته وذلك انه رأى كأن الارض انقلبت بأهلها والناس يهرون منها سفلا على رؤسهم وكان الكواكب تتساقط ويصدم بعضهم ببعض بأصوات مختلفة هائلة فغم ذلك ثم رأى رؤيا ثانية وثالثة وفسرها على علماء دولته وسيرة مملكته فاخبره بمجادنة الطوفان ولرؤيا الثانية بعد الاولى بسنة وهي كأنه

في هيكلكم يعرف بديانوس قرأى كأن خمسة من الكواكب محصورة في عمدة الذئب والجوز
هر هابط والشمس قد انكسفت ولم يبق منها الا القليل والقرقنداء تحدر من السماء في صورة امرأة
باكية تشكوزوالها فاتبه فرزعا وكتم ازرؤيا وعلم انها معدنة للاولى فأمر بتنظيف الهياكل
والمقامات والزبادة في قربانها وذبائحها وبخوراتها وتعظيم أهل العلم والعبادة وتفقد مواضع النظم
وازاله وقصر عن المهور وبقي مترقباما يحدث حتى رأى الرؤيا الثالثة وهي كأن الكواكب الثابتة
في صورة الطيور البيض وكانم الخطف العالم وكان الكواكب النيرة مظلمة والطيور تليق العالم
بين جبلين عظيمين والخيال قد انطبت على العالم فاتبه فرزعا أشد من الاولين فالنجب إلى هيكله
الذي في بيته وجعل يتضرع ويتمرغ بجذبه على الارض ويدعو ويكي إلى أن أصبح فاحضر
رؤساء الكهنة وكانوا يومئذ مائة وثلاثين كهنا رؤساء فضلاء وعليهم رؤس كبير يقال له اقليمون
وأخيرا أيضا أنه رأى رؤيا وهي كأنه والملك واقفان على رأس المنارة التي للملك باسموس وكان الفلك
قد تظأطأ ونزل حتى صار على رؤسنا وصار كالمكببة المحيطة بنا وكان كواكبهم قد دخلتنا
في صور شتى نورانية على قدر اجرامها والناس يستغيثون بالملك والملك رافع يديه له يدفع عن نفسه
الفلك اذ باغ رأسه وامرني برفع يدي لمثل ذلك وكان صورة الشمس طالعة علينا ونحن نستغيث
تخاطبنا أن الفلك سيعود موضعه فاذا مضى أربع مائة دورة تطبق اطبا فاشد يد اعلى أهل الارض
فحينئذ تنخر الاصنام وتبيد الاحكام وتزول الاعلام ويوم بالامر واضع الزمان ثم تظأطأ المنار بنا
إلى الارض ويرجع إلى موضعه فانتبهت فرزعا مرعوبا فقال له الملك متى كانت الرؤيا فأخبره بليتها
فوجدنا موافقة للرؤيا الملك الاولى فقال له الملك فعلى ما ذاتنا ولت يا اقليمون قال حدث عظيم
يحدث بعد أربع مائة سنة يضر جميع العالم الا قليلا من الناس وهو عن نصر الماء فسأل هل من
حادثة بعدها فأخذوا طالع سؤالا وحققوه وحرروه فذكروا حادثة ناسية ضد الاولى فقال هل
من حدث ثلاثا هما ففتسوا في حفي علمهم فقالوا نعم يحدث حادثة عظيمة وداهية دهيما لم يبق
على وجه الارض متحرك الا تلف وينحل عقد الفلك باذن القديم الازلي وهي الساعة فعند ذلك
أمر ببناء الاهرام والافرونيات وهي البرابي لتكون قبورا لهم وهنوى لاجسامهم وكثرا لاموالهم
وكنهم وذخائرهم فاختاروا لها الاوقات الثابتة في مبدأ حفر اساسها وعمارتها وتم حفر اساسها
في ست سنين وانكملت عمارتها في ست سنين وكان فيها صنائع وفعلة سبعون ألف نفس وارتداعها
بذراعهم مائة ذراع وأسه عشرة اذرع في مثله فعاش سوريد دهر اطول الاموات ودفن في الهرم
الشرقي وكان عمره لما عمرا الاهرام ستين سنة وولدت بعده أخوه هر حيت فلك وأقام على مناج أخيه
مائة وثلاثين سنة ثم مات ودفن بالهرم الغربي ثم مات بعده ولد أخيه افروس بن سوريد مائة

وخمس عشرة سنة ومات ودفن بالهرم الصغير وهذا ذكره أبو معشر في كتاب الالف وسببه انه وجدته في كثير من كتب الكهنة مثل كتاب انطاجس وياهوتيه ومنسبه ومياكل واستيدس وفي كتاب محمد ابن هرون العباسي مما نقله من كتاب علي بن محمد بن عبد الله بن حنون الطبري وكان السبب في ذلك أنه وجد لبعض أهل مصر وهو رجل من القبط يقال له ابتهيت كتاب بالقبطية في قرطاس على صدره وهو صيت من تحت أ كفانه فيه مكتوب علم الاول أن هذا انتخبه فيلبس اليوناني وهو أبو الاسكندر ذي القرنين ونسخته من صحيفة ذهب كتبتها بالقبطية مخرفة منقورة أخذها من أخوين قبطيين يقال لاحدهما ملول والآخر ويرثا وسألهم عن سبب معرفتهم بما به هذه الكتابة فذكرا أنهم من ولد رجل آمن بنوح نبي الله عليه السلام وجمه في السفينة وورثا عنه علم الاول وكان تاريخ الصحيفة من حين كتبت الى أن أخرجت لفيلبس التي سنة وتسعمائة سنة وخمسا وثمانين سنة ومن فيلبس الى هذا الكتاب وهو سنة ثمان وسبعمائة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام ألف وسبعمائة وثلاث وثمانون سنة يكون تاريخها الى الآن أربعة آلاف سنة وسبعمائة سنة وثمانين سنة وستين سنة ولو شرحنا ما في الصحيفة لطال الكتاب وقات الغرض وهذا ثمرة العلم والاجتهاد فيه (ولقد) أجاد كسرى أفشروا في قوله أما أهل العلم والدين فلهم علينا أن نسمع منهم ونصدق قولهم ونرفع مراتبهم ونذب عنهم ونوسع لهم ما منح فقهم وظهر صلاحهم وثبتت زاهتهم وعفتهم (وقال أيضا) ان من الناس صنفا طلبوا الرياسة بالدين والتفقه فأشهروا أنفسهم لذلك وربما خالفوا بعض المخالفة ليميزوا ثم استطالوا على الناس وأذاعوا أسرار الشريعة وحقيقة التأويل والتفسير وغير ذلك للعوام والجهال حتى مالوا اليهم واتالم فيجد في ديننا فيما تقدم خلافا بين السلف ولا افتراقا الا في عهد سابور بن سابور فان أولئك المبتدعة أظهروا التفسير واختلاف التأويل وكان من عاقبة أمرهم ما كان من طلب الرياسة واثارة الفتن حتى أطفأها الله برأى سابور وحرم التذكير الا لمن يوثق بعلمه ومعرفته وأمانته ومن تعدى ذلك عاقبه (ثم ينظر) في المتفتحة الذين يتحلون البدعة ويدعون اليها ويخالفون ما عليه الجمهور ويردعهم ويفرق جمعهم وكذلك يمنع التعصب للذاهب والمغالاة في ذلك فانها تؤدي الى فتن عظيمة وخطوب جسيمة وقد خرب كثير من بلاد المشرق بهذا السبب ثم ينظر في حال من يتظاهر من العلماء بعلم الفقه والشريعة ويطن الحكمة والفلسفة فاذا وقع له حكم من أحكام الشريعة لا يدركه عقله ولا يلحقه فهمه أسرع الى الطعن فيه ودر فيه برأيه وهذه الطائفة وان كانت قليلة لكنها ذميمة ونكايتهما أليمة وربما يزعمون ويوهمون أن الشرائع أمور موضوعة بازاء العامة دون الخاصة الذين هم منهم وان تفاصيله لا تستقر عند حكم العقل ولو دم تظروهم وثبت عقلهم لعلموا

أن رتبة النبوة والشريعة مستعالية على مراتب الحكمة وأنها تحصل بالأمر الإلهي لا بالكسب
الاجتهادي حتى تنتهي العقول البشرية إلى معرفة المقادير الربانية فينبغي أن يحسم مادة هذه
الطائفة ليستغراباً بأنفسهم فإنهم إن تفرغوا وضعدوا للعلمة بدعاً متنوعة بسمونها حكمة ثم يدعون
أنهم يطلعون على أسرار الشريعة وأغوارها ومن تتبع أخبار المتقدمين علم أن أكثر البدع
والفرق بهذا السبب ظهرت واشتهرت (فأما العلماء) وحفاظ الشريعة الذين على السنة فيجب
على الملأ احترامهم وإكرامهم لأنهم يحفظون قواعد الشرع الذي هو بحرسه ويذب عنه ويقاوم
من يعاند فيرفع طبقاتهم على مناديرهم من العلوم والتجرف فيها فأول علوم الشريعة علم القرآن
ومعرفة تفسيره وتأويله وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وأسباب نزوله ثم علوم الحديث
النبوي ومعانيها ولغاتها وأسبابها ومعرفة رواياتها وجرحهم وتعديلهم ومعرفة المرسل من
المسند ومن روى الحديث ورجع عنه أو تشكك فيه ومن روى بضمار روى ومعرفة اجماع
الصحابة ومن روى منهم ومن أفتى ثم علم أصول الدين هو وإن كان مما يجب تفسيده لأن شرف
العلم بشرف معالجه لكنه يبنى على الشرع الذي هو كتاب الله وسنة رسوله فينبغي أن يكون
الأصولي عالماً بالنصوص الشرعية والأدلة البرهانية العقلية فيبين الحدود والرسوم ويذكر الأدلة
على تفصيل العقائد الشرعية وهي العلم بذات الله تعالى وصفاته وأسمائه وما يجوز إطلاقه من
ذلك وما لا يجوز وتأويل ما يحتاج إلى التأويل ومعرفة النبوة والرسالة وحقيقة الوحي والخطاب
والكلام ووصف المعجزة والفرق بينها وبين المكرامة والكهانة ومعرفة الخائر والواجب
والمستحيل ومعرفة اليوم الآخر وما وعدت به الأخبار الصادقة من عذاب القبر والجنّة والنار
ومعرفة الإمامة والخلافة كل ذلك من لوازم أصول الدين ثم أصول الفقه فيكون عارفاً باللغة
والنحو والاصطلاح فيطلع على معاني النصوص فإن تحريف الأحكام لم يكن إلا من الجهل بذلك
فأذا عرف الناصح والمنسوخ والمنطوق والمفهوم والخاص والعام وأحكام ذلك أمكنه أن يبني
على ذلك الأحكام الشرعية والاقضية الصحيحة ثم علم الفروع وهو معرفة فرائض العبادات
وحياتها وتكاملاتها والمعاملات وعقودها وفسوخها والمناكحات ومباحها ومحظورها
والجنائيات وعقوباتها والاقضية وحكوماتها ثم يخرج من ذلك إلى علم الخلاف وعلم الجدل وهي
علوم متأخرة عنها في الرتبة ومستنبطة منها ومن ذلك علم اللغة والنحو وهو علم شريف يضطر إليه
في شرح الالفاظ لتعميق المعاني ومن العلوم علوم شريفة ينتفع بها ويحتاج إليها كعلم الطب
وعلم الحساب والمساحة وعلم الاوقات والازمان فمن تمام رونق الملكة اشتمالها على أئمة في هذه
العلوم فما أضيع دولة قل علمؤها فإنها ينقطع ذكرها عند انقضاء أيامها (وكان) المعتضد بالله

لما بنى قصوره المعروفة بالشماسية وربها له المهندسون زاد في ذرعها فوق الذي اخطوه كثيرا فمثل عن ذلك فقال أريد أن أتخذ حولى مساكن وغرفا يسكنها رؤساء العلماء والفضلاء من كل فن وأجرى عليهم الادارات وما يحتاجون اليه من النفقات وكل من أراد أن يشتغل بنوع من العلوم قصد ذلك الامام واشتغل عليه وحصل منه بغير تعب ولا مؤنة وكان مقصوده انتشار العلم والزيادة في الفضائل ولومته في العمر حتى يتم ذلك لكان قد دخل ذكر ابا قيا وجدد للعلوم والفضائل رونقا راقيا ألا ترى الى المأمون لما قال بالشيعة قوى أمر الشيعة في زمنه وكاد أن يخرج الخلافة من بيته وكذلك كان يشتغل بعلم النحو واتخذ الرصد فصنف له الزيج المأموني وظهر في زمانه فضلا عن النجمين مثل أبي معشر وغيره وقد قيل ان الناس على دين الملك فاذا اشتغل بأمر العلم والعلماء أوبش من الفنون كثير في زمانه وذكر في سيرته (وكان الناس) في زمن يزيد وسليمان يلقى أحدهم صاحبه فيقول له كيف كانت ليلتك وكيف غنت جارتك ومن كانت قيتك ثم في زمن عمر بن عبدالعزيز يلقى أحدهم صاحبه فيقول كم صليت البارحة ومتى نمت ومتى قمت الى وردك وما الذي قرأت من القرآن ثم في زمن مروان بن محمد يقول هذا اهذا كم أنفقت على قصرك وما ارتفاع مجلسك وجدارك وأحجارك على الرسم في متابعة الملوك واقتفاء آثارهم فالملك السعيد الذي تبع المحامد ويقتنى الناس أثره فيخلد في الخيزرة

في سيرة الملك مع الامراء وأركان مملكته

كانت ملوك الفرس تفضل الجند على سائر أصناف الناس ويحتجون لذلك بان الناس يبذلون منفعة جوارحهم أو حواسمهم والجند يبذلون نفوسهم ورؤسهم ولا قرب بين الخالتين وكانت تجعل الناس على أربعة أقسام الجند أولها ثم تقسم الجند على أربعة أقسام على كل قسم أمير يسمى ميرميران وكل أمير معه أربعة يسمى كل واحد منهم أمفهد ومع كل أمفهد أربعة هرازية ومع كل مرزبان أربعة سلارية ومع كل سالار عشرة أساورة وهم الفرسان المفردة وخمسة من الرجالة وتسمى البيادة فاذا أراد الملك انفاذا أمر خاطب بعض الامراء فسهل عليه وعلى من يخاطبه (وكانت) ملوك الروم ترتب ذلك عشرة عشرة ويسمون كل واحد باسم من لغتهم ومثاله في العربية ان مع الملك عشرة أمراء مع كل أمير عشرة نقباء مع كل نقيب عشرة عرفاء مع كل عرف عشرة قواد مع كل قائد عشرة فرسان ومع الرجالة كذلك وبعضهم يجعل عوض العريف زعيما هذا ترتيب الاول (وكذلك) لما كثر جيش النبي صلى الله عليه وسلم رتب عليهم نقباء وعرفاء تكون مخاطبته معهم وفي زماننا هذا ترتيب آخر وهو أيضا حسن اذا استقر الحال على ما يذكر أن يكون الملك لجيشه أتائبك أم ما يكون في الشجاعة والكرم والمعرفة

والنباهاة والشهامة والبسطة والتجارب والدين والعفة والمكنتة في العدة والعدة ثم من بعده
مقدموا الآلاف على كل ألف فارس مقدم كبير ومعه مقدمون مفاردة على كل خمسين فارس
مقدم مفردى ومع المفردى خمس مقدمين دونه مع كل مقدم عشرة فرسان وعلى الكل نقيب كبير
وتحت يده نقباء ورؤس فوب على الآلاف فكل مقدم ألف معه نقيب ألف في خدمته ومع
النقيب نقباء صغار على كل خمسين فارسا نقيب فهذا أحوط ما يكون من الترتيب (فمينبغى)
للملك أن يتظر في حال جيشه وازاحة أعداءهم وأن يحملهم على اتباع الشرع والانقياد للوالم
الدين مع التزامه هو لذلك فانه ان لم يكن محافظا على الشريعة لا يستقيم التزامه كما قيل

متى يستقيم الظل والعود أعوج * ففي التزامه لذلك التزامهم للطاعات فيحصل خير الدنيا والآخرة
ثم يتفقد أحوالهم فن حسنت سيرته ومناصحته يضاعف الاحسان اليه حتى يتشبه به غيره وتجهد
الجند في الطاعة لله تعالى وملكهم (ويحكى) عن بعض ملوك العرب انه كان يخرج في بعض الليالي
الباردة فيصلى الفجر والعشاء الآخرة في جامع قلعة وللجامع أبواب مشرعة الى البلد تفتح في وقت
الصلاة فاذا سلم الامام أمر بغلاق الابواب على الناس ثم يأمر لكل من حضر الصلاة بخمسة دنانير
أو بنمائية وربما أمر بعشرة وكذلك يفعل في يوم عاشوراء المحرم والقصد بذلك الترغيب في الخير
والمواظبة على الصلاة (ويجب) على الملك أن يحسن النظر في حال الامراء وتقدمهم وارتفاع
درجاتهم لمن تظهر منه النجاسة والشهامة والدين ولا يفعل ذلك بالهوى ويميل النفس بل بالفكرة
والمشورة والتجربة فان الخطأ في ذلك مضر فانه ربما يخف على قلبه شخص ويشغل آخر فيكون
الخفيف غير أهل لما حصل له من التقدمة والآخر أهل لها فيحصل الخطأ وتولد المضرة كمن يتناول
الحلوا الضار ويترك المر النافع فليشدد الاحتراز في ذلك ويفرق بين الشريف والمتشرف والجندى
والمجنبد فانه ان أهمل ذلك وقدم على غير نسق صارت الرؤس أذنا باوا الأذنا برؤسا وتحكيم الصغار
شديد المضرة سريع الخلل ومن اعتبر سيرته من مضى في زماننا هذا وجد وقائع كثيرة من هذه
النسبة حصل بسببها ما لا يستدرك فأرطه وقد يوجد في الصغار والوسط من تكون فيه نجاسة
وكفاية كما يوجد في أبناء ذوى الشرف من فيه القصور والتخلف فليوصل كل أحد الى موضع
يليق به على التدريج (ويجب) أن يمنع الجند من الجلوس في الخوانيت والاسواق للتجارة والصناعة
ومراجعة الرعية في معاشهم فان في ذلك تضيقا على الرعية ثم يتفقد أحوال الجند ومن عبر الى
رحمة الله منهم ومن حصل له العطب في الغزاة أو الهرم في الخدمة فيحسن اليهم والى مخلفهم ويطلق
لهم ما يقوم بأودهم وان كان في أولادهم من يقوم مقامهم أجرى لهم ما كان له جاريا وكذلك
كانت تفعل الملوك المتقدمون (وقال) النبي عليه السلام من ترك كلاً أو ضياعاً فالى وعلى

وكذلك ينظر في حال من افتقر أو ركبته الديون واقطاعه قليل لا يقوم بحاله و ينظر أيضا في حال الجندي البطلين الذين طلبوا منه استخدامهم فلم يستخدمهم أو أعطاهم اقطاعا لا يرضيهم فانهم يترصون به الدوائر و ينظرون له رمية يتبعونها فيحترزونها ثم اذا كثروا إما بالارضاء أو بالابعاد (وصنف آخر) من الجندي تركوا الجندية اختيارا او ملاملا فان اشتغلوا بزهد أو بتجارة أو صناعة تركوا وشأنهم فان حصل منهم من الشرو وما لا يمكن تداركه فيجب أن يشغلوا ويعدوا (وصنف آخر) من الجندي ذو بأس شديد وشجاعة أفرط اعتقادهم في حق أنفسهم حتى ظنوا أن النظام الدولة بهم واستقامة الملك بسيدهم وأنه لا يستحق العطاء والجناء غيرهم ومتى أعطى غيرهم أو أكرم حقنوا وان توقعوا أو طلبوا أشياء لم ينالوها تحزبوا وظلموا فينبغي للملك العارف أن يفكر في حالة من أحوال الفروسية يعلم أنهم مقصرون في بلوغ غايتها فيندبهم لها ليتبين لهم التقصير ويعبرهم بها فيعرفوا مقدار نفوسهم (آثار الاول في تاريخ الدول)

الباب الخامس في المقامات

(المقامة الغرضية)

(أخبر الحرث بن همام) قال أرقت ذات ليلة حالكة الجلباب هامية الرباب ولا أرق صب طرد عن الباب ومني بصدا الاحباب فلم تزل الافكار يجمعن همي ويحان في الوسواس وهمي حتى تمكنت لمضض ما غابت أن أرزق سميرا من الفضلاء ليقتصر طول ايلتي اليلاء فما انقضت منيتي ولا أنقضت مقلي حتى قرع الباب قارع له صوت خاشع فقلت في نفسي اعل غرس التمني قد أثمر وليلا الحظ قد أقر فنهضت اليه بجلان وقلت من الطارق الآن فقال غريب أجنه الليل وغشيه السيل وبيتني الايواء لاغير واذا أسحر قدم السير قال فلبلال شعاعه على شمسه ونم عنوانه

(أرقت) أي سهرت (حالكة) أي سوداء (الجلباب) هو ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء والمعنى انها شديدة الظلام (هامية الرباب) أي سائلة السحاب واحدم راية بالفتح وهي معابة بيضاء رقيقة وقد تكون سوداء (صب) أي عاشق (ومني) أي دوابلي (يجمعن) من هاج اذا نار وهيجته أن أثرت هيجا (ويحان) من أجاله اذا أداره وحركه هكذا وهكذا (الوسواس) جمع الوسوسة وهي حديث النفس أو الكلام الخفي (وهمي) أي بالي وفكري (لمضض ما غابت) أي الحرقه ووجع ما غابت (سميرا) أي محاذنا الليل (اليلاء) أي شديدة الظلمة كقولك شعر شاعر في التأكيده (منيتي) أي ما تمنيت به وطلبته (أنقضت) أي أطبقت الاحقان (قرع) أي طرق وضرب (لعل غرس الخ) كناية عن كونه ترج حصول مطلوبه وسؤاله بهذا الطارق فيتم ما غرسه من التمني ويعني ما أظلم ليلته من عدم التمني (فنهضت الخ) أي فقم اليه مسرعا (الطارق) هو الذي يأتي ليلا (أجنه) أي ستره (وغشيه) أي أناه وأدركه (الايواء) أي ادخاله المنزل لانه مصدر أو المتعدى (أسحر) أي دخل في وقت السحر (قدم السير) أي لم يطلب غير البيت الى السحر ثم نصرف (شعاعه على شمسه) يريد أن ما بدأ منه من حسن المخاطبة يدل على علو شأنه وبديع بيانه (ونم عنوانه الخ) العنوان ما يكتب على ظهر الكتاب ونم بمعنى أخبر وهو في معنى ما قبله